



تحليل فلسفة العقل النقدي عند محمد عابد الجابري وأثرها في تجديد الفكر الإسلامي المعاصر

سعاد ناجي التلوع

قسم الفلسفة والدراسات الإسلامية (الفلسفة) - الأكاديمية الليبية جنزور - ليبيا

An Analysis of Mohammed Abed Al-Jabri's Philosophy of Critical Reason and its

Impact on the Renewal of Contemporary Islamic Thought

Suad Naji Al-Talou

Department of Philosophy and Islamic Studies, Philosophy Division, Libyan

Academy, Janzour, Libya

Lndlk2000@gmail.com

الملخص

يتناول هذا البحث فلسفة العقل النقدي عند المفكر المغربي محمد عابد الجابري بوصفها واحدة من أهم محاولات إعادة بناء العقل العربي الإسلامي في العصر الحديث، وسعى إلى تحليل الأسس المعرفية والفلسفية التي قام عليها مشروعه في نقد العقل العربي، ثم الوقوف على أثر هذا المشروع في مسارات تجديد الفكر الإسلامي المعاصر. وتتطلب من إشكالية إلى أي حد استطاع مشروع الجابري النقدي أن يقدم أداة منهجية فاعلة لتجديد النظر في التراث وقضايا الفكر الإسلامي المعاصر، وما حدود هذه الأداة ومزلقها؟

وهدف إلى تفكيك بنية العقل العربي كما رسمها الجابري في ثلاثيته المعرفية (البياني والعرفاني والبرهاني)، وتحليل منهجه في نقد التراث القائم على القطيعة الإبستمولوجية والقراءة البنيوية والتاريخية، وتقويم إسهاماته وحدوده في ضوء ما وجه إليه من نقود جوهرية. وقد اعتمد الباحث المنهج التحليلي النقدي المقارن في مقارنة النصوص التأسيسية للجابري ومحاورة أبرز نقاده. وخلص إلى أن مشروع الجابري يمثل نقلة منهجية في التعامل مع التراث، غير أن تقسيمه للعقل ظل محكوما بخلفيات أيديولوجية أضعفت زعمه العلمي الصارم، وهو ما يجعل الإفادة من مشروعه رهينة بتجاوز إسقاطاته المسبقة مع الاحتفاظ بروحه النقدية التجديدية.

الكلمات المفتاحية: العقل النقدي، محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، البنية المعرفية، تجديد الفكر الإسلامي، القطيعة الإبستمولوجية، التراث والحدثة.

Abstract

This study examines the critical-reason philosophy of the Moroccan thinker Muhammad 'Abid al-Jābirī (1936–2010) as one of the most significant modern attempts to reconstruct Arab-Islamic reason. It analyses the epistemological foundations of his "Critique of Arab Reason" project, deconstructs his tripartite structure of Arab reason (bayānī, 'irfānī, burhānī), and evaluates his method of critiquing tradition through epistemological rupture and structural-historical reading. Using an analytical-critical-comparative method, the study concludes that al-Jābirī offered a genuine methodological shift, yet his division of reason remained governed by

ideological presuppositions that weakened its scientific claim; benefiting from his project therefore requires transcending its prior projections while preserving its renewing critical spirit.

Keywords: Critical Reason; al-Jābirī; Critique of Arab Reason; Epistemic Structure; Renewal of Islamic Thought; Epistemological Rupture.

المقدمة

ارتبط سؤال النهضة في الفكر العربي الحديث، منذ بدايات الاحتكاك بالحدثا الغربية، بجملة من الأسئلة التي تجاوزت حدود السياسة والاقتصاد لتصل إلى طبيعة التفكير نفسه. فقد وجد الفكر العربي أمام تحدي التعامل مع واقع جديد يفرض أنماطا مختلفة في المعرفة والتنظيم والحياة، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يحافظ على صلته بترائه الثقافي والديني. ومن هنا ظهر جدل مستمر بين العودة إلى الماضي والبحث عن مقومات الأصالة من جهة، ومحاولة الاستفادة من منجزات الحدثا الغربية من جهة أخرى. ومع استمرار هذا الجدل، بدأ عدد من المفكرين العرب ينظرون إلى مشكلة النهضة من زاوية أعمق، تتمثل في السؤال عن طبيعة العقل الذي ينتج الأفكار والمواقف التي تحكم علاقة الإنسان العربي بترائه وواقعه.

وقد جاء مشروع محمد عابد الجابري ليقدم قراءة مختلفة لمسألة النهضة والتجديد. فلم يكتف الجابري بتشخيص مظاهر التأخر في الواقع العربي، بل اتجه إلى دراسة العقل العربي نفسه، محاولا الكشف عن الأسس المعرفية التي تشكلت من خلالها طرق التفكير والفهم والاستدلال. وقد نظر إلى هذا العقل باعتباره نتاجا تاريخيا وثقافيا تشكل عبر مراحل طويلة من تطور الفكر العربي والإسلامي، ولذلك رأى أن فهم أزماته لا يكون إلا بالعودة إلى البنية المعرفية التي أسهمت في تشكيله.

ويقوم مشروع الجابري على إعادة قراءة التراث العربي والإسلامي قراءة نقدية، لا تهدف إلى رفضه أو تمجيده، وإنما إلى فهمه وتحليل مكوناته وآليات اشتغاله. فالمشكلة، في نظره، لا تكمن في وجود التراث ذاته، وإنما في الطريقة التي نتعامل بها معه في الحاضر، وفي استمرار بعض أنماط التفكير القديمة في توجيه وعينا ومواقفنا. لذا حاول الجابري أن يضع مسافة نقدية بين الباحث والتراث، تسمح بإعادة فهمه وتحديد عناصره الفاعلة تاريخيا، والتمييز بينها وبين ما لم يعد قادرا على الاستجابة لحاجات الواقع المعاصر.

ومن هنا يحتل مفهوم نقد العقل مكانة أساسية في مشروع الجابري، لأنه يمثل المدخل الذي من خلاله حاول تفسير جانب من أسباب تعثر التجديد في الفكر العربي. وقد اعتمد في ذلك على تحليل البنية المعرفية للتراث، وميز بين أنماط معرفية مختلفة، أبرزها البيان والعرفان والبرهان، معتبرا أن لكل منها آلياتها الخاصة في إنتاج المعرفة وتحديد الحقيقة. ولم يكن هذا التصنيف مجرد محاولة لوصف التراث، بل كان جزءا من مشروعه لإعادة بناء العقل العربي وتجاوز أنماط التفكير التي رأى أنها أصبحت تعيق قدرته على التعامل مع أسئلة العصر.

وتتبع أهمية دراسة فلسفة العقل النقدي عند محمد عابد الجابري من مكانة مشروعه في الفكر العربي المعاصر، ومن استمرار النقاش حول مدى قدرته على تقديم تصور عملي ومنهجي لتجديد الفكر العربي والإسلامي. كما أن دراسة هذا المشروع تتيح الوقوف على العلاقة بين نقد العقل ونقد التراث، وفهم الأسس التي قام عليها تصور الجابري للمعرفة والعقل والحدثا، إلى جانب التعرف على أبرز الانتقادات التي وجهت إليه.

وعلى هذا الأساس، يتجه هذا البحث إلى تحليل فلسفة العقل النقدي عند محمد عابد الجابري، من خلال دراسة أهم مفاهيمها ومرتكزاتها المنهجية، وبيان كيفية توظيفها في قراءة التراث العربي والإسلامي، ثم بحث مدى إسهامها في تجديد الفكر الإسلامي المعاصر، مع الوقوف على أبرز حدود المشروع والاعتراضات التي أثارها، بهدف تقديم قراءة نقدية متوازنة لمكانة الجابري ودوره في مسار الفكر العربي والإسلامي المعاصر.

مشكلة البحث

تتحدد مشكلة البحث في محاولة فهم طبيعة العقل النقدي عند الجابري وحدود صلاحيته أداة لتجديد الفكر الإسلامي المعاصر. فالمشروع الجابري ينطوي على توتر داخلي بين ادعائه العلمية والحياد المنهجي من جهة، وبين ما يحمله من خيارات أيديولوجية مضمرة انحاز فيها إلى العقل البرهاني المغربي-الأندلسي على حساب العقل العرفاني المشرقي من جهة أخرى هنا تصاغ المشكلة هل نحن أمام مشروع معرفي خالص، أم أمام قراءة أيديولوجية تلبست لبوس الإيستمولوجيا؟ وما الذي يبقى صالحا من هذا المشروع لتجديد النظر في التراث بعد رفع ما علق به من إسقاطات؟

أسئلة البحث

1. ما مفهوم العقل النقدي وأصوله الفلسفية، وكيف تبلور في مشروع الجابري؟
2. كيف رسم الجابري بنية العقل العربي في ثلاثيته (البياني والعرفاني والبرهاني)، وما الأساس المعرفي لهذا التقسيم؟
3. ما المنهج الذي اعتمده الجابري في نقد التراث، وما مرتكزاته الإيستمولوجية والبنائية والتاريخية؟
4. ما مظاهر التجديد التي أحدثها المشروع في قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، وما أبرز النقود الموجهة إليه؟

أهداف البحث

1. تحديد مفهوم العقل النقدي وبيان جذوره وأهم مرتكزاته الفلسفية .
2. تحليل بنية العقل العربي كما تصورها محمد عابد الجابري .
3. دراسة منهج الجابري في قراءة التراث وتحليل أنظمتة المعرفية .
4. بيان أثر مشروع الجابري في تجديد الفكر الإسلامي وقضايا الإصلاح والحداثة والعلاقة بين العقل والنص .
5. تقويم مشروع الجابري نقديا من خلال إبراز إسهاماته وأهم الانتقادات الموجهة إليه.

أهمية البحث

1. إثراء الدراسات الفلسفية المعاصرة المتعلقة بالعقلانية النقدية والفكر العربي .
2. تقديم قراءة منهجية لمشروع الجابري في نقد العقل العربي وتحليل أسسه الفكرية والمعرفية .
3. الاستفادة في دراسات التراث والفكر الإسلامي من خلال تحليل منهج الجابري في التعامل مع التراث .
4. فهم إشكاليات التجديد والحداثة وعلاقة العقل العربي بالتراث والفكر المعاصر .
5. تقويم مشروع الجابري نقديا من خلال دراسة إسهاماته وأبرز الانتقادات الموجهة إليه.

منهج البحث

اعتمدت الباحثة في هذا البحث على المنهج التحليلي النقدي، من خلال قراءة وتحليل النصوص الأساسية في مشروع محمد عابد الجابري، بهدف الوقوف على أهم مفاهيمه وأفكاره والكشف عن الأسس التي يقوم عليها تصوره للعقل العربي ونقد التراث. كما استعانة بالمنهج المقارن، من خلال وضع بعض أطروحات الجابري في مقابل مشاريع فكرية معاصرة، ولا سيما مشروع طه عبد الرحمن ومحمد أركون، وذلك بهدف إبراز أوجه الاتفاق والاختلاف بينها، وتحديد خصوصية مشروع الجابري وموقعه ضمن مسار الفكر العربي المعاصر.

حدود البحث

1. الحدود الموضوعية: يقتصر البحث على دراسة مشروع نقد العقل العربي في مؤلفاته الأربعة الأساسية، مع الاستعانة ببعض الكتب والأعمال التمهيدية المرتبطة بالمشروع .
2. الحدود الزمنية: تمتد الدراسة من مطلع ثمانينيات القرن العشرين، مع ظهور مشروع نقد العقل العربي، إلى وفاة محمد عابد الجابري عام 2010 .

3. الحدود المرجعية: استعانة الباحثة بالدراسات والأعمال النقدية التي تناولت مشروع الجابري، بما في ذلك الدراسات التي ظهرت بعد وفاته، بهدف الاستفادة منها في تحليل المشروع وتقويمه.

الدراسات السابقة

1- دراسة جورج طرابيشي (1996)، بعنوان: نظرية العقل: نقد نقد العقل العربي.

هدفت الدراسة إلى نقد الأسس المعرفية والمنهجية التي أقام عليها محمد عابد الجابري مشروعه في نقد العقل العربي، والكشف عن مواطن التحيز والانتقائية في تصنيف الجابري للأنظمة المعرفية العربية إلى البيان والعرفان والبرهان. واعتمد الباحث على المنهج النقدي التحليلي والمقارنة النصية من خلال إعادة قراءة مؤلفات الجابري ومقارنتها بالنصوص التراثية والفلسفية التي استند إليها. وخلصت إلى أن بعض نتائج الجابري لا تتسجم بصورة كاملة مع المعطيات التاريخية والفكرية للتراث العربي الإسلامي، وأن تقسيم العقل العربي إلى أنظمة معرفية منفصلة قد ينطوي على قدر من الاختزال والتعميم، كما رأى أن مشروع الجابري نفسه يحتاج إلى نقد إبستمولوجي يكشف حدوده ومواطن قصوره. وأوصت بضرورة إعادة قراءة التراث العربي الإسلامي بعيدا عن التصنيفات المسبقة، واعتماد قراءة أكثر شمولاً وتوازناً للعلاقة بين مكوناته الفكرية والفلسفية.

2- دراسة طه عبد الرحمن (1994)، بعنوان: تجديد المنهج في تقويم التراث.

هدفت إلى تقديم تصور منهجي بديل في التعامل مع التراث الإسلامي، ونقد المناهج الحديثة التي تتعامل معه من خلال أدوات ومفاهيم مستوردة من خارج بنيته الثقافية والحضارية، ومن بينها بعض جوانب المشروع الجابري. واعتمدت على المنهج التحليلي النقدي والتأصيلي، من خلال تحليل طبيعة المنهج المستخدم في قراءة التراث، والتمييز بين الآليات المنقولة والآليات المأصولة. وخلصت إلى ضرورة تجاوز النظرة التجزئية للتراث لصالح النظرة التكاملية، وربط قراءة التراث بمقاصده وقيمه الداخلية، مع التأكيد على ضرورة إنتاج آليات منهجية نابغة من خصوصية الثقافة الإسلامية. وأوصت بإعادة بناء مناهج دراسة التراث على أساس تكاملي وتأصيلي، وعدم الاكتفاء باستعارة المناهج الغربية دون إخضاعها للنقد والتكييف.

3- دراسة عبد الإله بلقزيز وآخرين (2013)، بعنوان: محمد عابد الجابري: أوراق عربية.

هدفت إلى تقديم قراءة تعريفية ونقدية لمشروع محمد عابد الجابري الفكري، وبيان أبرز القضايا التي تناولها، وخاصة مشروعه في نقد العقل العربي وعلاقته بإشكالية التراث والحداثة. واعتمدت على المنهج التحليلي النقدي من خلال عرض وتحليل المفاهيم الأساسية في مشروع الجابري ومناقشة إسهاماته في الفكر العربي المعاصر. وخلصت إلى أن مشروع الجابري يمثل أحد أبرز المشاريع الفكرية العربية التي حاولت إعادة قراءة التراث في ضوء أسئلة الحداثة، إلا أنه أثار في الوقت نفسه إشكالات منهجية وفكرية تتعلق بتصنيف مكونات العقل العربي وبطبيعة العلاقة بين التراث والحداثة. وأوصت بمواصلة دراسة المشروع الجابري بصورة نقدية، وعدم التعامل معه باعتباره قراءة نهائية للتراث، وإنما بوصفه اجتهادا فكريا قابلا للمناقشة والتقويم.

4- دراسة محمد عابد الجابري وآخرين (2016)، بعنوان: محمد عابد الجابري: المواءمة بين التراث والحداثة.

هدفت إلى تقديم مجموعة من المقاربات الفكرية لمشروع الجابري، وبيان طبيعة العلاقة التي أقامها بين التراث العربي الإسلامي ومتطلبات الحداثة، فضلا عن دراسة إسهاماته في تجديد الفكر العربي. واعتمدت على مجموعة من المناهج الفلسفية والتحليلية والنقدية تبعا لطبيعة الدراسات والمقاربات التي تضمنها الكتاب. وخلصت إلى أن مشروع الجابري شكل محاولة بارزة لإعادة بناء العلاقة بين التراث والحداثة من خلال إعادة قراءة البنية العقلية للتراث العربي، وأن المشروع يتميز بأهمية كبيرة في الفكر العربي المعاصر، مع بقاء عدد من أطروحاته موضع نقاش ونقد بين الباحثين. وأوصت بضرورة مواصلة الحوار النقدي حول مشروع الجابري، ودراسة جوانبه المعرفية والمنهجية في ضوء التحولات التي يشهدها الفكر العربي المعاصر.

5- دراسة محمد عابد الجابري، بعنوان: تكوين العقل العربي. (1984)

هدفت إلى الكشف عن العوامل التاريخية والثقافية والمعرفية التي أسهمت في تشكيل العقل العربي، وتحليل البنية المعرفية التي حكمت إنتاج المعرفة في التراث العربي الإسلامي. واعتمد الجابري على المنهج الإبستمولوجي التحليلي والنقد التاريخي في قراءة النصوص والتراثات الفكرية العربية. وخلصت إلى أن العقل العربي تشكل ضمن أنظمة معرفية رئيسية، أبرزها البيان والعرفان والبرهان، وأن فهم أزمة الفكر العربي المعاصر يتطلب الكشف عن البنية المعرفية التي حكمت تطوره التاريخي. وأوصى بصورة ضمنية بضرورة إعادة بناء العقل العربي وتجاوز أنماط التفكير التي تعيق الانتقال إلى الحداثة، والاستفادة من المنهج البرهاني والعقلاني في تجديد الفكر العربي.

6- دراسة محمد عابد الجابري، بعنوان: بنية العقل العربي. (1986)

هدفت إلى تحليل مكونات العقل العربي وآليات إنتاج المعرفة داخله، ومواصلة المشروع الذي بدأه الجابري في دراسة تكوين العقل العربي، مع التركيز على البنية المعرفية التي أنتجها التراث. واعتمدت على المنهج الإبستمولوجي والتحليل النقدي للنصوص التراثية. وخلصت إلى أن العقل العربي لا يمثل بنية معرفية متجانسة، وإنما يتضمن أنظمة وآليات معرفية مختلفة، وأن التداخل بين هذه الأنظمة أسهم في تشكيل طبيعة الفكر العربي. وأوصت بنقد البنية المعرفية الموروثة وإعادة بناء الفكر العربي على أساس عقلاني قادر على التعامل مع تحديات العصر.

يتضح من العرض السابق أن الدراسات التي تناولت بحث الجابري يمكن تقسيمها إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية: اتجاه مؤيد أو مستكشف لأهمية المشروع وإسهامه في تجديد الفكر العربي، واتجاه نقدي ركز على الكشف عن جوانب القصور المنهجي والإبستمولوجي فيه، واتجاه حاول تقديم بدائل منهجية لقراءة التراث العربي الإسلامي.

ويختلف البحث الحالي عن الدراسات السابقة في أنها لا تقتصر على عرض مشروع الجابري أو نقد جانب محدد منه، وإنما يسعى إلى تحليل فلسفة العقل النقدي عند الجابري تحليلًا مركبًا، من خلال الكشف عن الأسس الإبستمولوجية والمنهجية التي يقوم عليها مشروعه، وتحليل مفاهيمه المركزية، ولا سيما العقل العربي، البيان، العرفان، البرهان، التراث والحداثة، ثم تقييم مدى قدرة هذه الفلسفة على الإسهام في تجديد الفكر الإسلامي المعاصر. كما يسعى البحث الحالي إلى تحقيق موازنة نقدية بين مشروع الجابري وبعض المشاريع الفكرية العربية المعاصرة، بما يسمح بتحديد نقاط القوة والقصور، وتقديم رؤية نقدية مستقلة.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والفلسفي للعقل النقدي

المطلب الأول: مفهوم العقل في الفلسفة الإسلامية والفكر العربي

لم يكن مفهوم العقل في التراث العربي الإسلامي مفهومًا واحدًا ثابتًا، بل تعددت دلالاته بتعدد الحقول المعرفية التي استعملته. فالعقل عند المتكلمين قوة ناظرة تدرك بها المعارف وتقام بها الحجج، وهو عند الفلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا يتصل بنظرية العقول المفارقة والعقل الفعال بوصفه مصدرا للفيض المعرفي، في حين يميل الفقهاء والأصوليون إلى ربطه بالتكليف والاستدلال على الأحكام. وهذا التعدد الدلالي هو ما جعل تحديد ماهية العقل العربي مسألة إشكالية استدعت لاحقًا مقاربة نقدية شاملة (الجابري، 1984، ص 15-22).

وقد استند الجابري إلى تمييز الفيلسوف الفرنسي أندريه لالاند بين العقل المكون (الفاعل) والعقل المكون (المنتج) ليؤسس مقاربتة، فالأول هو ملكة التفكير المشتركة بين البشر، والثاني هو جملة القواعد والمبادئ التي يفكر بها العقل في ثقافة بعينها. وبهذا التمييز نقل الجابري السؤال من العقل بوصفه ملكة كونية إلى العقل بوصفه بنية ثقافية تاريخية، وهو المدخل الذي مكنه من الحديث عن عقل عربي له آلياته الخاصة (الجابري، 1984، ص 15-18، طرابيشي، 1996، ص 22-27).

المطلب الثاني: مفهوم العقل النقدي وأصوله الفلسفية

يقصد بالعقل النقدي ذلك النمط من التفكير الذي يخضع مبادئه وأدواته ونتائجه للمساءلة والفحص بدل التسليم بها، ويرتد إلى شروط إنتاج المعرفة نفسها ليكشف حدودها. وقد تبلور هذا المفهوم في صورته الحديثة مع الفلسفة النقدية عند إيمانويل

كانط الذي جعل النقد شرطاً سابقاً على كل معرفة، إذ لا يسلم لأي ملكة بصلاحياتها قبل تحديد مجالها وحدودها (طرابيشي، 1996، ص 15-20).

غير أن نقل هذا المفهوم إلى الحقل العربي لم يكن استتساخاً، فقد أراد المفكرون العرب أن يحولوا النقد من أداة لفحص العقل الخالص إلى أداة لفحص العقل التاريخي-الثقافي الذي أنتج التراث. وهنا يلتقي الجابري مع تقليد نقدي أوسع يضم أركون وطرابيشي وحسن حنفي، وإن اختلفت مداخلهم، فبينما اتجه أركون إلى نقد العقل الإسلامي بأدوات الأنسنة والألئسية، اتجه الجابري إلى نقد العقل العربي بأدوات الإيستمولوجيا والبنوية (أركون، 1996، ص 18-26).

المطلب الثالث: الجذور الفكرية لمشروع محمد عابد الجابري

تعود جذور مشروع الجابري إلى انشغال مبكر بمسألتين متضافرتين: دراسة التراث من جهة، والاشتغال بالمنهج والدراسات الإيستمولوجية من جهة أخرى. وقد أنجز الجابري أطروحته للدكتوراه عن ابن خلدون بعنوان العصبية والدولة (1970)، ثم مهد لمشروعه الكبير بكتابه نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي (1980) الذي أرسى فيه مبادئ منهجه في فصل التراث عن ذاته ثم وصله بنا، والبحث عن الأيديولوجيا وراء الإيستمولوجيا (مركز دراسات الوحدة العربية، 2013).

ثم جاء كتابه الخطاب العربي المعاصر (1982) بمثابة تمرين معرفي جرب فيه مفاهيمه على نصوص الفكر العربي الحديث قبل أن ينتقل إلى التراث نفسه في رباعية نقد العقل العربي. وبهذا يظهر أن المشروع لم يكن طفرة معزولة، بل ثمرة مسار متدرج تفاعل فيه الجابري مع البنوية الفرنسية وإيستمولوجيا العلوم من جهة، ومع قضايا النهضة العربية من جهة أخرى (الجابري، 1982، ص 9-17).

المبحث الثاني: فلسفة العقل النقدي عند محمد عابد الجابري

المطلب الأول: السياق التاريخي لنشأة مشروع نقد العقل العربي

نشأ مشروع نقد العقل العربي في سياق هزيمة 1967 وما أعقبها من مراجعات جذرية للفكر القومي والنهضوي، حين بدا أن أزمة العرب ليست في وسائلهم فحسب بل في بنية وعيهم. أراد الجابري أن ينقل المراجعة من مستوى نقد التراث إلى مستوى نقد العقل الذي أنتجه، منطلقاً من قناعة مؤداها أن نقد العقل جزء أساس وأولي من كل مشروع للنهضة، وأن تعثر النهضة العربية الحديثة يعود في جانب منه إلى إغفال هذه المهمة التأسيسية (الجابري، 1984، ص 5-11).

وقد صدر الجزء الأول تكوين العقل العربي عام 1984، تلاه بنية العقل العربي (1986)، فالعقل السياسي العربي (1990)، وأخيراً العقل الأخلاقي العربي (2001)، فاكتمل بذلك بناء رباعي يتناول تكوين العقل ونظمه المعرفية ومحدداته السياسية ونظمه القيمية. وبهذا التدرج انتقل المشروع من التأريخ لتكوين العقل إلى تشريح بنيته الداخلية (مركز دراسات الوحدة العربية، 2013).

المطلب الثاني: بنية العقل العربي عند الجابري

يقوم جوهر مشروع الجابري على أطروحة مفادها أن الثقافة العربية الإسلامية أنتجت ثلاثة أنظمة معرفية متميزة تحكم إنتاج المعرفة فيها وأساليب الاستدلال، وهي: النظام البياني، والنظام العرفاني، والنظام البرهاني. وهذه الأنظمة ليست مجرد مذاهب فكرية بل عقول بالمعنى البنيوي، أي جملة المبادئ والقواعد اللاشعورية التي توجه التفكير (الجابري، 1986، ص 21-28).

أولاً: العقل البياني

و هو نظام المعرفة الذي تأسس في علوم اللغة والفقه والكلام والبلاغة، ويقوم على اللفظ والدلالة وحمل الفروع على الأصول عبر القياس. وهو عقل نصي يجعل من اللغة أفقاً للمعرفة وحداً لها، ويغلب فيه سلطان الأصل على الفرع والنقل على العقل (الجابري، 1986، ص 29-44).

ثانياً: العقل العرفاني

العقل العرفاني نظام معرفي يقوم على الكشف والذوق والحدس بوصفها طرقاً للوصول إلى الحقيقة، وقد تسرب في نظر الجابري إلى الثقافة العربية من موروثات هرمسية وغنوصية وباطنية. ويرى الجابري أن هذا العقل يمثل مصدر اللاعقلانية في

الثقافة العربية، ومن ثم يوجه إليه نقده الأشد بوصفه معطلا للبرهان (الجابري، 1986، ص 179-201). وهنا تحديدا تتركز أبرز المآخذ على الجابري، إذ عد موقفه من العرفان تحاملا أيديولوجيا أكثر منه حكما معرفيا محايدا (طرابيشي، 1998، ص 24-33).

ثالثا: العقل البرهاني

هو نظام المعرفة القائم على المقدمات اليقينية والاستدلال المنطقي المستمد من الإرث الأرسطي، ويمثله في الثقافة العربية تيار الفلسفة والعلوم، وتبلغ ذروته عند الجابري في المشروع الرشدي بالمغرب والأندلس. ويميل الجابري إلى ترجيح هذا العقل بوصفه الأقدر على حمل مشروع العقلانية والحدائق، وهو ترجيح حمل بعدا جغرافيا-ثقافيا (انتصار المغرب على المشرق) استدعى نقدا واسعا (طرابيشي، 1998، ص 28-36).

المطلب الثالث: منهج الجابري في نقد التراث

يستند منهج الجابري إلى جملة من الأدوات الإجرائية المتضافرة التي استعارها من الإبستمولوجيا والبنوية والتاريخ، وطوعها لقراءة التراث.

القطيعة الإبستمولوجية

يستعير الجابري من غاستون باشلار مفهوم القطيعة الإبستمولوجية ليجعل منه أداة للفصل بين ما هو ميت في التراث وما هو قابل للحياة، ولتمييز بين البنى المعرفية المتجاوزة والبنى القابلة للاستئناف. والقطيعة هنا ليست هدمًا للتراث، بل إعادة ترتيب لعلاقتنا به تجعله معاصرا لنفسه أولا ثم معاصرا لنا ثانيا (الجابري، 1980، ص 22-30).

القراءتان البنوية والتاريخية

تقوم القراءة البنوية عند الجابري على النظر إلى فروع الثقافة العربية (نحو، فقه، كلام، بلاغة، تصوف، فلسفة) بوصفها غرضا في قصر واحد متصلة مترابطة لا خياما منعزلة، بحثا عن النظام الخفي الذي يجمعها. أما القراءة التاريخية فتدّ الألفاظ إلى شروط إنتاجها الاجتماعية والسياسية لتفكيك ادعاء الصلاحية المطلقة. وبتضافر القراءتين مع القراءة النقدية يكتمل جهاز الجابري المنهجي الذي يسعى إلى فصل الذات عن الموضوع في التعامل مع التراث (الجابري، 1984، ص 30-41).

المبحث الثالث: أثر فلسفة العقل النقدي في تجديد الفكر الإسلامي المعاصر

المطلب الأول: مظاهر التجديد في مشروع الجابري

يتمثل التجديد الأبرز في مشروع الجابري في نقله التعامل مع التراث من منطق التقديس أو القطيعة الكلية إلى منطق التحليل النقدي، فالتراث عنده ليس كيانا مقدسا ولا عبئا يلقى، بل بنية فكرية قابلة للتفكيك والفهم ضمن شروط إنتاجها التاريخي والمعرفي. وبذلك حرر النقاش من ثنائية الأصالة والمعاصرة الجامدة، وفتح أفقا لقراءة عقلانية تميز بين ما يمكن أن يعيش معنا عصرنا وما ينبغي تجاوزه (الجابري، 1980، ص 12-24).

ومن مظاهر التجديد كذلك إدخاله أدوات العلوم الإنسانية الحديثة من إبستمولوجيا وبنوية وتحليل تاريخي إلى ميدان الدراسات التراثية التي كانت تقارب غالبا بأدوات وصفية أو دفاعية. فأتاح هذا التسليح المنهجي رؤية جديدة تكشف اللاشعور المعرفي الذي يوجه إنتاج المعرفة في الثقافة العربية، وهو ما جعل مشروعه علامة فارقة في مسار العقلانية النقدية العربية (دراج وآخرون، 2012، ص 41-52).

المطلب الثاني: إسهامات الجابري في إعادة قراءة التراث الإسلامي

أسهم الجابري في إعادة رسم خريطة التراث الإسلامي عبر إبراز التعدد الداخلي فيه بدل تصويره كتلة متجانسة، فالتراث في نظره ساحة صراع بين أنظمة معرفية وقوى اجتماعية وسياسية، لا مجرد تعاقب سلمي للأفكار. وقد أعاد بذلك الاعتبار لمنطقة العقل البرهاني ولتيار الرشدية بوصفهما ذخيرة عقلانية يمكن استئنافها في مشروع الحدائق العربية (الجابري، 1986، ص 383-410).

كما ربط الجابري البعد المعرفي بالبعد السياسي في العقل السياسي العربي حين حلل محددات الاجتماع السياسي العربي عبر ثلاثية القبيلة والغنيمة والعقيدة، مبينا كيف تشابكت البنى المعرفية مع بنى السلطة والثروة. وبهذا التحليل قدم مفتاحا لفهم استمرار بعض أنماط الحكم والولاء في الاجتماع العربي، وهو إسهام تجاوز حدود قراءة التراث إلى تحليل الحاضر (الجابري، 1990، ص 47-63).

المطلب الثالث: أثر المشروع في قضايا الفكر الإسلامي المعاصر

- أ. امتد أثر مشروع الجابري إلى جملة من القضايا المركزية في الفكر الإسلامي المعاصر، يمكن إجمال أبرزها فيما يأتي:
- أ. الإصلاح الديني: دعا الجابري إلى تحرير الفهم الديني من سلطة القراءات المتكلسة، وإلى إعمال العقل في فهم النص ضمن مقاصده وشروط نزوله، بما يقارب روح الإصلاح دون القطيعة مع الدين.
- ب. تجديد الخطاب الديني: أسهم منهجه النقدي في تشجيع قراءات تاريخية للنص تميز بين الثابت والمتغير، وإن اختلفت هذه القراءات في مدى جذريتها.
- ج. العلاقة بين العقل والنص: قدم الجابري نموذجا يجعل العقل شريكا في فهم النص لا تابعا له، مستندا إلى التراث الرشدي في التوفيق بين الحكمة والشريعة.
- د. الدولة والحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان: ربط الجابري بين العقلانية النقدية ومشروع الحداثة السياسية، ورأى أن استئناف العقل البرهاني شرط معرفي لتأسيس دولة حديثة تقوم على العقلانية والمواطنة.
- وقد جعلت هذه الامتدادات من مشروع الجابري مرجعا لتيارات إصلاحية وعقلانية عربية، وإن ظل محل سجال بين من رأى فيه أداة للتحرر ومن رأى فيه انحيازاً مسبقاً يفقر التراث بعض غناه (طه عبد الرحمن، 1994، ص 55-68).

المبحث الرابع: تقويم فلسفة العقل النقدي عند محمد عابد الجابري

المطلب الأول: نقاط القوة في المشروع

يحسب لمشروع الجابري عدد من مواطن القوة: أولها الطموح التركيبي الذي جعله يقدم رؤية شاملة لبنية العقل العربي بدل الدراسات الجزئية المتناثرة، وثانيها الصرامة المنهجية في التعريف والتحديد المفاهيمي التي جعلت مقولاته قابلة للنقاش والاختبار، وثالثها جرأته في وضع منهجه صريحا مكشوفاً، بما أتاح لخصومه أنفسهم أدوات نقده (طرابيشي، 1996، ص 30-37). وهذه الشفافية المنهجية هي ما يميزه عن كثير من معاصريه، ويجعل مشروعه على ما فيه من مأخذ محطة لا يمكن تجاوزها في أي نقاش جاد حول العقلانية العربية.

المطلب الثاني: أبرز الانتقادات الموجهة إليه

أ- نقد جورج طرابيشي

يمثل طرابيشي أعنف نقاد الجابري وأكثرهم منهجية، إذ خصص لنقده خمسة مجلدات بعنوان نقد العقل العربي. وجوهر مأخذه أن الجابري غير نقدي في نقده، وأن قراءته للعقل العربي غدت هي نفسها عقبة إبستمولوجية، فبدل أن يوحد العقل العربي قسمه إلى عقول متحاربة، فأقام حرباً بين البياني والعرفاني والبرهاني، وانتصر جغرافيا للمغرب على المشرق وأيديولوجيا للسني على الشيعي، فوقع بحسب طرابيشي في مركزية إثنية حضارية تتناقض دعواه العلمية (طرابيشي، 1998، ص 24-36).

ب- نقد طه عبد الرحمن

يوجه طه عبد الرحمن نقداً منهجياً مؤصلاً، فيرى أن الجابري قارب التراث بآليات منقولة من ثقافات أخرى مسلطة عليه من الخارج، بدل الآليات المأصولة المستمدة من التراث ذاته. ويقابل النظرة التجزئية عند الجابري بالنظرة التكاملية التي تنتظر في الآليات المنتجة لكل جزئية لا في تفضيل جزء على آخر. وبذلك يخلص طه إلى أن منهج الجابري ينقض نفسه من الداخل حين يدعي الحياد وهو محكوم بمرجعية حداثية مسبقة (طه عبد الرحمن، 1994، ص 47-68).

ج- نقد محمد أركون ونصر حامد أبو زيد (المقارنة)

من زاوية مقارنة، يرى أركون أن حصر الجابري تحليله في العقل العربي بدل العقل الإسلامي أوقعه في تضيق للموضوع أغفل غير العربي من إنتاج المسلمين، كما أن أدواته البنيوية ظلت دون ما تتيحه الأسنوية والأنثروبولوجيا التاريخية من عمق (أركون، 1998، ص 33-46). أما نصر حامد أبو زيد فيلتقي مع الجابري في مشروعية القراءة التاريخية للنص، لكنه يمضي أبعد في تاريخية النص ذاته، بما يجعل مقارنته أكثر جذرية وأشد إثارة للجدل (أبو زيد، 1994، ص 25-39).

المطلب الثالث: رؤية نقدية للباحثة

وترى الباحثة أن الحكم على مشروع الجابري ينبغي أن يتجاوز ثنائية القبول المطلق والرفض المطلق إلى قراءة تمييزية تفصل بين أدواته المنهجية وخياراته الأيديولوجية. فالأداة المنهجية القائمة على التحليل البنيوي-التاريخي وربط المعرفة بشروط إنتاجها تظل مكسبا معرفيا يمكن استثماره في تجديد النظر في التراث، بصرف النظر عن النتائج التي انتهى إليها الجابري نفسه. غير أن الخيار الأيديولوجي المتمثل في المفاضلة بين العقول الثلاثة وترجيح البرهاني على العرفاني، والمغرب على المشرق، يمثل نقطة الضعف البنيوية في المشروع، إذ حول أداة تحليلية يفترض فيها الحياد إلى أداة حكم قيمي مسبق. وهنا تحديدا يصح نقد طرابيشي وطه عبد الرحمن في جانب كبير منه. والموقف الأقرب إلى الصواب في تقدير الباحث هو الإفادة من جهاز الجابري المنهجي في الكشف عن البنى الخفية، مع رفض إسقاطاته التقييمية المسبقة، والانفتاح على التكامل بين أنظمة المعرفة بدل إقامة الحرب بينها. وبهذا يتحول نقد العقل من مشروع للفرز والإقصاء إلى مشروع للفهم والاستئناف

الخاتمة

تناول البحث فلسفة العقل النقدي عند محمد عابد الجابري وأثرها في تجديد الفكر الإسلامي المعاصر، تحليلا لبنيتها ومنهجها، وتقويما لإسهاماتها وحدودها. وقد انتهى إلى جملة من النتائج والتوصيات.

- النتائج

1. مثل مشروع نقد العقل العربي نقلة منهجية نقلت التعامل مع التراث من التقديس أو القطيعة إلى التحليل النقدي القائم على ربط المعرفة بشروط إنتاجها.
2. قام المشروع على تقسيم العقل العربي إلى ثلاثة أنظمة معرفية (بياني، عرفاني، برهاني)، وهو تقسيم ذو قيمة تحليلية عالية لكنه حمل انحيازاً قيمياً أضعف دعواه العلمية الصارمة.
3. امتد أثر المشروع إلى قضايا الإصلاح الديني وتجديد الخطاب والعلاقة بين العقل والنص والحدثة، فصار مرجعاً للتيارات العقلانية العربية.
4. كشف النقد الموجه إليه لا سيما عند طرابيشي وطه عبد الرحمن عن توتر بنيوي بين الادعاء الإيستمولوجي والخيار الأيديولوجي في المشروع.

ويستنتج أن القيمة الباقية لمشروع الجابري تكمن في أدواته المنهجية أكثر من نتائجه التقييمية، فالإفادة منه رهينة بتجاوز إسقاطاته المسبقة مع الاحتفاظ بروحه النقدية التجديدية والانفتاح على التكامل بين أنظمة المعرفة بدل التفاضل الإقصائي بينها.

- التوصيات

1. توجيه الدراسات الأكاديمية إلى التمييز المنهجي بين الأدوات التحليلية والخيار الأيديولوجي في المشاريع النقدية العربية عند الإفادة منها.
2. إعادة قراءة العقل العرفاني قراءة منصفة تتجاوز أحكام الجابري المسبقة، لتبين ما فيه من طاقة معرفية وروحية.
3. تشجيع المقاربات التكاملية التي تجمع بين مكاسب الجابري المنهجية وبدائل طه عبد الرحمن التأصيلية في تقويم التراث.

قائمة المراجع

1. أبو زيد، نصر حامد. (1994). نقد الخطاب الديني (ط2). مكتبة مدبولي القاهرة.
2. أبو زيد، نصر حامد. (2000). النص والسلطة والحقيقة: إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة (ط4). الدار البيضاء - المركز الثقافي العربي بيروت.
3. أركون، محمد. (1996). الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد (ترجمة هاشم صالح). بيروت: دار الساقي.
4. أركون، محمد. (1996). تاريخية الفكر العربي الإسلامي (ترجمة هاشم صالح، ط2). مركز الإنماء القومي بيروت.
5. أركون، محمد. (1998). قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم؟ (ترجمة هاشم صالح). دار الطليعة بيروت.
6. أيت هو عدي، محمد. (د.ت). مسألة المنهج في دراسة التراث بين الجابري وطه عبد الرحمن (دراسة أكاديمية). مركز ابن النفيس للدراسات والأبحاث.
7. بن سليمان، صادق. (2012). مفكرون عاشوا ليكتبوا واعتبروا ليجددوا. مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، العدد 5.
8. الجابري، محمد عابد. (1970). العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي (أطروحة دكتوراه، جامعة الرباط). الدار البيضاء: دار النشر المغربية.
9. الجابري، محمد عابد. (1980). نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي. الدار البيضاء - بيروت: المركز الثقافي العربي.
10. الجابري، محمد عابد. (1982). الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
11. الجابري، محمد عابد. (1984). تكوين العقل العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.
12. الجابري، محمد عابد. (1986). بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية (نقد العقل العربي 2). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
13. الجابري، محمد عابد. (1990). العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.
14. الجابري، محمد عابد. (1991). التراث والحداثة: دراسات ومناقشات. مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.
15. الجابري، محمد عابد. (2001). العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.
16. دراج، فيصل، وآخرون. (2012). العقلانية والنهضة في مشروع محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.
17. طرابيشي، جورج. (1996). نقد نقد العقل العربي: نظرية العقل. بيروت: دار الساقي.
18. طرابيشي، جورج. (1998). نقد نقد العقل العربي: إشكاليات العقل العربي. بيروت: دار الساقي.
19. طرابيشي، جورج. (2002). نقد نقد العقل العربي: وحدة العقل العربي الإسلامي. بيروت: دار الساقي.
20. طرابيشي، جورج. (2004). نقد نقد العقل العربي: العقل المستقل في الإسلام؟. بيروت: دار الساقي.
21. طرابيشي، جورج. (2010). من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث: النشأة المستأنفة. بيروت: دار الساقي.
22. طه عبد الرحمن. (1994). تجديد المنهج في تقويم التراث. الدار البيضاء - بيروت: المركز الثقافي العربي.
23. طه عبد الرحمن. (2006). روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية. الدار البيضاء - بيروت: المركز الثقافي العربي.
24. قوعيش، جمال الدين. (د.ت). المشروع العربي عند جورج طرابيشي: نقد نقد العقل العربي أنموذجاً. مجلة أوراق فلسفية.

25. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. (2016). محمد عابد الجابري: المواءمة بين التراث والحداثة (مؤلف جماعي). الدوحة - بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
26. مركز دراسات الوحدة العربية. (2013). محمد عابد الجابري ونقد العقل العربي (سلسلة أوراق عربية 41). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
27. النحال، مصطفى. (2000). من الخيال إلى المتخيل: سراب مفهوم عند محمد عابد الجابري. مجلة فكر ونقد (المغرب)، العدد 33.
28. Kant, I. (1998) Critique of Pure Reason (P. Guyer & A. Wood, Trans) Cambridge University Press.
29. Lalande, A. (2010) Vocabulaire technique et critique de la philosophie. Paris: PUF